University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع عشر - فبراير 2017

# العامل الديني وتأثيره على الحياة السياسة في الإمبراطورية البيزنطية زمن هرقل 610-641 م

**د. خميس أحمد ارحومة حميد.**

( عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة طبرق - ليبيا )

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع عشر - فبراير 2017

# العامل الديني وتأثيره على الحياة السياسة في الإمبراطورية البيزنطية زمن هرقل 610-641م

**الملخص:**

اقترن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية بوجود الاباطرة العظام الذين بذلوا الجهد الجهيد لكي يحافظوا على بقائها ككيان سياسي له مكانته وتأثيره في العصور الوسطى، ولعل من أبرز أولئك الأباطرة كان الإمبراطور هرقل الذي تمكن من الوصول الى سدة الحكم سنة 610م، واستمر حتى سنة 641م. تخللت فترة حكم هرقل العديد من الاحداث السياسية والدينية التي كان لها أثرا كبيرا على الإمبراطورية البيزنطية بشكل خاص وعلى حقبة العصور الوسطى بشكل عام. ومن اهم وابرز تلك الاحداث هو الجدل الديني الذي ورثته الإمبراطورية وكنيستها منذ عهد قسطنطين الاول 323-337م، والذي استمر حتى زمن هرقل ومن اتى بعده. ذلك الجدل الذي شاع بين سكان الإمبراطورية البيزنطية حتى اصبح سمة من سماته كان له دور في توجيه دفة الحياة السياسية داخل الإمبراطورية. ولتوضيح هذا الأمر كان السبب في اختيارنا لموضوع هذا البحث الذي نستهدف من خلاله ابراز هذا الدور بشكل جلي، حيث إننا سنتناول بين طياته الاحوال السياسية والدينية التي كانت عليه الإمبراطورية قبل وأبان حكم هرقل، كما سنتطرق الى تلك الحروب التي خاضها هرقل ضد الإمبراطورية الفارسية وضد الجيوش الاسلامية موضحين اسبابها وتأثير العامل الدين على مجريات أحداثها. اما عن أهم نتائج هذا البحث فقد وصلت الدراسة الى: تأكيد دور العامل الديني في قوة وضعف الإمبراطورية البيزنطية من الناحيتين العسكرية والسياسية، وضعف تأثيرها على محيطها الجغرافي. كذلك كان للعامل الديني أثرا واضحا في خسارة الإمبراطورية البيزنطية لأملاكها الشرقية في الحربين الفارسية والإسلامية.كما كان له دور بارز في انتصارات الإمبراطورية على القوات الفارسية ابان حرب استرداد المقاطعات الشرقية منها. وبينت هذه الدراسة نمو ظاهرة جديدة برزت ولأول مرة خلال العصور الوسطى آلا وهي ظاهرة تأثير الحماس الديني على الحروب آنذاك. وبرزت نتيجة اخرى هي ظهور مذهب جديد جاء من خلال اجتهاد الإمبراطور هرقل في التوفيق بين اتباع الديانة المسيحية عرف بمذهب الإرادة الواحدة المونوثلية.

**الكلمات المفتاحية:** الإمبراطورية البيزنطية، العامل الدين، هرقل، السياسية، الدينية

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع عشر - فبراير 2017

# The religious factor and its influence on the political life in the Byzantine Empire In the reign of Hercules 610-641 AD

**Dr. Khamees Hameed**

Tobruk University – Faculty of Arts – Department of History

## Abstract.

The viewer to the history of the Byzantine Empire will find many emperors who have made the effort to keep their survival as a political entity has its position and influence in the middle Ages, and perhaps the most prominent of those emperors was Emperor Hercules, which enables access to power in 610 and lasted until the year 641 AD. The reign of Hercules permeated many of the political and religious events that have had a significant impact on both the Byzantine Empire and the era of the Middle Age. The most prominent of those events was a religious controversy, which inherited the empire and the church since the time of Constantine I 323-337AD, which continued until the time of Hercules and so on. That controversy was common to the inhabitants of the Byzantine Empire, which had become a feature which had a role in guiding the political life within the Byzantine Empire. The reason to choose the topic of this research was to clarify the above, that we target to highlight this role clearly, moreover, we discussed the political and religious conditions before and during the rule of Hercules in addition, we looked into the wars that fought by Hercules against the Persian Empire and the Islamic armies explaining that the reasons and the impact factor of religion in those events.

As for the most important results of this research:

- Emphasise the role of the religious factor in the strength and the weakness of the Byzantine Empire, from both aspects the military and political.
- As well as the religious factor was a clear impact on the loss of the Byzantine Empire the eastern Regions in the two wars against the Persians and The Muslims. Also, the same factor was a prominent role in the victories of the Byzantine Empire during recovery war on the eastern provinces against the Persians
- This study showed the growth of a new phenomenon that has emerged for the first time of the middle Ages, which was the impact on religious fervour on the war at that time.
- Another consequence is the emergence of a new doctrine which knows Monothelitism, that came after Emperor Hercules managed in reconciling the followers of Christianity

**المقدمة:**

عاشت الإمبراطورية البيزنطية في كثير من الفوضى والاضطرابات والكثير من الأزمات الصعبة داخليا وخارجيا مست جميع مناحي الحياة وبخاصة الحياة الدينية .فقد عصفت بها الخلافات المذهبية مع مطلع القرن السابع الميلادي قبيل تولي الإمبراطور هرقل الحكم إلى ما بعد جلوسه على العرش.

وهذه الوقائع تدعونا الى التساؤل هل كان للعامل الديني أثر في سير تلك الأحداث؟ وما مدى ذلك الأثر وصوره إن وجدت؟

و للإجابة عن هذه التساؤلات تم لهذا البحث الذي نهدف من خلاله كشف حقيقة العلاقة بين العامل الديني والسياسي لأحداث تلك الفترة الهامة من تاريخ العصور الوسطى عامة وتاريخ بيزنطة خاصة.

- وتكمن أهمية هذا الموضوع في محاولة الكشف عن طبيعة تلك العلاقة لمعرفة مدى انعكاسها على المتغيرات السياسية للإمبراطورية البيزنطية بشكل خاص ونمط العلاقة بين الكيانات السياسية والأيديولوجية الدينية في تلك الحقبة بشكل عام.

- وبناء على ذلك سنتناول في هذا البحث أحوال الإمبراطورية السياسية والدينية قبيل وصول هرقل إلى العرش، وتتبع كيفية وصوله، مسلطين الضوء على أهم الجوانب التي مرت بها الإمبراطورية في تلك الفترة والتي ربما تسهم بشكل ما في إيضاح ما نصبو إليه مثل حروب الإمبراطورية مع إمبراطورية الفرس وكذلك حروبها ضد الفتح الإسلامي معتمدين في ذلك على بعض المصادر والمراجع المختصة **كحولية ماركيلينوس** كوميز **وحولية ثيوفانس وتشريعات ثيودوسيوس** ومن المراجع **تاريخ الإمبراطورية البيزنطية لفازيلييف، وتاريخ الدولة البيزنطية لاوستروجورسكي، وكتاب وثائقي عن كنيسة المشرق الأشورية النسطورية لبيشوي.**

أما عن المنهج الذي ننتهجه في إعداد هذه الدراسة فهو المنهج التاريخي السردي والتحليلي المقارن لكونه مناسبا لهذه الدراسة.

- أدى نجاح الثورة التي قادها فوكاس Phokas سنة 602م ضد الإمبراطور الشرعي موريس Maurice (582-602م) - الذي تم قتله مع خمسة من ابنائه الذكور وأعلن فوكاس امبراطورا للبلاد - إلى خلخلة النظام بل وإلى ضعف وخسارة الإمبراطورية البيزنطية بعض الاحيان أجزاء واسعة من أملاكها فقد بدأ عهد فوكاس بنقض الفرس لمعاهدة الصلح[1] التي كانت مبرمة مع الإمبراطور موريس، وقاموا بالهجوم على الأراضي البيزنطية من الجهة الشرقية، في ذات الوقت الذي توغل فيه الافار داخل أملاك الإمبراطورية من الجهة الغربية، وتزامن ذلك مع سياسة داخلية بنيت على الإفراط في استخدام القوة وسفك الدماء حيث قام الإمبراطور الجديد بقتل الكثير من المتعاطفين مع الإمبراطور السابق، وازداد غضبه عندما علم أنَّ أحد أبناء موريس استطاع الهرب إلى كسرى فقام بقتل بنات موريس وأرملته وعدد كبير من النبلاء والقادة وكل من شك في ولائه[2] وبهذا السلوك ولّد شعوراً بالاشمئزاز والفزع لدى الكثيرين الذين قاموا بمراسلة هرقل الكبير Heraclius -حاكم ولاية افريقيا- طالبين منه

(1) حدث هذا الصلح سنة 581م عندما تمرد فاران احد رجال الفرس على كسرى الثاني، وعز الاخير عن الاحتفاظ بحقه أمامه ومن ثم لجأ الى موريس الامبراطور البيزنطي وعرض عليه ان يتنازل له عن ميافارقين ودارا وان يتخلى عن ادعاءاته في أرمينية وأرزانيني على الحدود الجنوبية لأرمينيا الفارسية. في مقابل عونه لاسترداد عرشه وقبل موريس ذلك وأمده بجيش استطاع هزيمة فاران واعادة السلطة الى كسرى الذي اوفى بعهده للإمبراطور. انظر الى:
Vasiliev,History of the Byzantine Empire 324-1453,Madison, ed.2, 1952, 1.p.171

(2) اومان: الامبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، مصر ،دار الفكر العربي، 1953، ص100.

التدخل لإنقاذ بيزنطة من الطاغية فوكاس، وما إن وصلت الرسائل التي تطلب من هرقل التدخل، حتى أمر ابنه هرقل الصغير بالتحرك على رأس أسطول كبير تسانده قوة أخرى من الاسكندرية بقيادة ابن أخيه نكيتاس Niketas واتجه الاثنان إلى القسطنطينية، وعند وصول هرقل اليها تخلى الشعب والجيش عن فوكاس فدخلها دون قتال، وقبض على فوكاس الذي تم إعدامه أمام هرقل والتمثيل بجثته لما اقترفه من جرائم.[3]

وبعد تتبعنا تلك الظروف التي صاحبت وصول هرقل الى العرش الإمبراطوري وما كانت عليه أحوال الإمبراطورية وما كان يحيط بها من مخاطر تمثلت في أعداء طامعين في توسيع نفوذهم على حساب أملاكها كالفرس في الشرق الذين استطاعوا السيطرة على سوريا وفلسطين، والاستيلاء على الصليب الأعظم، وحرق كنيسة القيامة التي شيدها قسطنطين الاول Constantine I (324-337م)[4] والافار في البلقان. ناهيك عن ضعف الجيش وقتل معظم قياداته على يد فوكاس، نجد من الاهمية بمكان الاطلاع على ما كانت عليه الحياة الدينية قبيل حكم هرقل خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، إبتداء من عهد جستنيان الاول Justnianl(527-565م) الى عهد الإمبراطور موريس.

والحقيقة إنَّ مفهوم الدين المسيحي وما دار حوله من فكر وجدل ترجع أصوله إلى وقت بعيد، يمكن تحديده وربطه بزمن اختفاء المسيح من على وجه الأرض. غير أن الخلافات بين علماء المسيحية وفقهائها ظهرت بشكل واضح في ذلك الجدل المذهبي الذي نشأ بين رجلي الدين أريوس وأثناسيوس فقد نجم عن ذلك ظهور مذهبان عرفا باسميهما، وكان مفهوم جوهر المسيح هو محور خلافهما. ولم يتوقف الخلاف عند هذا الجدل بل بدأت تنشطر من المذهبان نظريات أخرى ومفاهيم جديدة تختلف من مجموعة لأخرى ادت إلى تقسيم أتباع الديانة المسيحية إلى عدة مجموعات تعتنق كل منها مذهبا فكرياً دينياً معيناً يختلف عن ذلك الذي تتبناه الفرقة الأخرى، وربما كان من أشهرها في هذه الفترة المذهب النسطوري الذي ناقش مسألة علاقة الطبيعة البشرية في المسيح بالطبيعة الإلهية. وينسب هذا المذهب الى نسطور الذي كان يرى أن للمسيح طبيعتين إحداها إلاهية والأخرى بشرية، عاشتا جنباً إلى جنب منفصلتين عن بعضهما مجتمعتين في وعاء واحد هو جسد المسيح الذي أختاره الله ليضع فيه الطبيعة الإلهية، ومريم ليست والدة الإلهة وإنما هي والدة المسيح ذي الطبيعة البشرية.[5]

وقد أورد هذا القول في احدى خطبه حيث قال " إنهم يدعون اللاهوت معطي الحياة قابلاً للموت ويتجاسرون على إنزال اللوغوس إلى مستوى خرافات المسرح ، كما لوكان (كالطفل) ملفوفاً بخرق ثم بعد ذلك يموت.. لم يقتل بيلاطس اللاهوت- بل حُلة اللاهوت. ولم يكن اللوغوس هو الذي لف بثوب كتاني بواسطة يوسف الرامي .. لم يمت واهب الحياة لأنه من الذي سوف يقيمه إذاً إذا مات.. ولكي يصنع مرضاة البشر إتخذ المسيح شخص الطبيعة الخاطئة (البشرية) .. أنا أعبد هذا الإنسان (الرجل) مع اللاهوت ومثل آلات صلاح الرب.. والثوب الأرجوانى الحى الذي للملك... ذاك الذي تشكَّل في رحم مريم ليس الله نفسه.. لكن لأن الله سكن في ذاك الذى إتخذه، إذاً فإن هذا الذى إتُّخِذَ أيضاً يدعى الله بسبب

---

(3) Vasiliev. OP. Cit, p.176; see also, John H. Rosser, Historical Dictionary of Byzantium, p.326.

انظر ايضا: اومان: المرجع السابق، ص 102.

(4) Ostrogorsk, G.: History of the Byzantine State, Translate. Joan Husse, Rutgers University Press, New Jersey, 1957, p.85; Vasiliev. OP. Cit, p.176

هسي: العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1977، ص 102.

(5) Vine, A. R.: The Nestorian Churches,London,1937, p.24.

انظر ايضا: محمد حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ،ط5، القاهرة، دار النهضة العربية، 1995، ص 51؛ سمير عبده: المسيحيون السوريون قديما وحديثا، ط2، دمشق، 2002 ، ص5.

ذاك الذى إتخذه. ليس الله هو الذي تألم لكن الله إتصل بالجسد المصلوب .. لذلك سوف ندعو العذراء القديسة وعاء الله وليس والدة الإله، لأن الله الآب وحده هو الثيئوتوكوس، ولكننا سوف نوقّر هذه الطبيعة التي هى حُلة الله مع ذاك الذى إستخدم هذه الحُلة؛ سوف نفّرق الطبائع ونوحّد الكرامة ، سوف نعترف بشخص مزدوج ونعبده كواحد."[6]

وهكذا أعلن نسطور عن عقيدته التي لم تستقم لكثير من رجال الدين المسيحي، وكان من أبرزهم كيرل أسقف الإسكندرية الذي أعلن مخالفته القوية لنسطور [7]وطالب الإمبراطور بضرورة عقد مجمع مسكوني لمناقشة هذا الخلاف، وحظى هذا الطلب بموافقة الإمبراطور وتم عقد المجمع في مدينة افسس سنة 431 م[8]، وانتهت أعمال المجمع بنفي نسطور وتحريم وتجريم آرائه وعزله عن اسقفية القسطنطينية [9]. كما صدرت مجموعة من القوانين الصارمة ضد المذهب النسطوري ومعاقبة معتنقيه بمصادرة أملاكهم ومنع اجتماعاتهم ، وحرق مؤلفاتهم وتحريم تداولها والاحتفاظ بها.[10].

غير أن هذه القوانين لم تكن لتمنع استمرار المفهوم النسطوري للعقيدة المسيحية، التي أثقل كاهلها ظهور اوطيخا الذي اتفق مع نسطور في وجود طبيعتين بشخص المسيح غير أنَّه اختلف معه في أنَّ هاتين الطبيعتين قد اتحدتا في ذاته وأصبحتا طبيعة واحدة تفوقت الالهية فيها على الانسانية بل أن الطبيعة البشرية ذابت تماما في جوهره الالهي.[11]

بناء على هذا المفهوم الجديد استدعى الإمبراطور مارقيان Marcian (425-455م) رجال الدين سنة 451م لعقد مجمع مسكوني في خلقدونيا لتحديد موقف العقيدة المسيحية من هذا المذهب الجديد الذي عرف باسم المونفيزي أي الطبيعة الواحدة ، وقرر المجتمعون أنَّ للمسيح طبيعتان إلهية وأخرى بشرية مجتمعتان في شخصه وأدانوا أصحاب الطبيعة الواحدة الذين يقولون إنَّ الطبيعة الإنسانية اختفت في الطبيعة الإلهية واعتبروهم مهرطقين، وكان لهذا القرار أثاراً وخيمة على الإمبراطورية إذ كان أتباع هذا المذهب يمثلون معظم سكان الأقاليم الشرقية للإمبراطورية فاجتاحت موجة العداء في سوريا وفلسطين ومصر ضد القسطنطينية ، لما ترتب عليها من اضطهاد كبير عانى منه المنافزة[12]

لم يكن مجمع خلقيدونيا آخر من أدان النسطورية والمونوفيزية فقد اصدر الإمبراطور زينون Zeno (474-491م) بعد حوالي ثلاثين عاما سنة 482 او 483م ماعرف بقانون الإتحاد في محاولة منه للقضاء على ذلك الانقسام داخل الكنيسة المسيحية حيث قام بالتوفيق بين قرارات

---

(6) بيشوى: كتاب وثائقي عن كنيسة المشرق الأشورية النسطورية تاريخها وحاضرها وعقائده، مطرانية دمياط وكفر الشيخ والبراري ودير القديسة دميانة، 2003 ، ص21-22.

(7) Vine, Op.Cit, p. 24.

(8)Theophanes: The Chronicle, trans.Cyril Mango and Roger Scott, Clarendon Press. Oxford, 1997, pp. 139-140.

(9)Marcellinus Comes: The Chronicale of Marcellinus, Trans, Brian Croke, Sydney, 1995, pp. 78-79; Theophanes: Op. Cit, pp.140-141, see also: Vine, Op. Cit, pp. 31,32.

بيشوى : مرجع سابق ، ص44-75.

(10) Theodosios: The Theodosian Code and Novels and the Srmondian Constitutions, trans, Clyde Pharr, Princeton University,1952,. 16.5.66, Codex. Justinian, Trans. Fred H. Blume, Ed, Timothey Kearley, 1.5.6.1.

(11) , Marcellinus Comes: Op. Cit,, p. 91; . Codex. Just, 1.1.5,1.1.6.

انظر ايضا: اسحق عبيد : فيما جرى في بيعة الإسكندرية بعد المجمع الخلقدوني المقدس 451م من واقع مخطوطة بالعربية كتبها الراهب فرانسيسكوس مريا من رهبنة الأصغار للقديس فرنسيس الشاروفيني القاصد الرسولي إلى أرض مصر سنة 1691م، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس، مجلد 13، القاهرة، 1973، ص 207، عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1995، ص73-74.

(12)Marcellinus Comes: Op. Cit, pp. 90-91;Schaff, Philip: The Seven Ecumenical Councils,p.384; Vasiliev: History of the Byzantine. vol. I, p.105.

مجمعي نيقيا والقسطنطينية ومباديء كيرل الإسكندري التي وردت في مجمع أفسس وأدان نسطور وأوطيخا وأكد على حق الإمبراطور في اختيار العقيدة[13]

استمر هذا الجدل حتى عهد الإمبراطور جستنيان الذي حاول أن يحد من نموها بين المسيحيين خاصة في مصر والشام وآسيا الصغرى بإصداره لعدة قرارات مضادة لها ، كما وجه سنة 533م دعوته إلى أهل القسطنطينية بضرورة التقيد بسلوكيات وأخلاق المسيح وعلى وجه الخصوص في تواضعه، واصفا لنسطور واوطيخا وأتباعهم بأعداء الله الآثمين.[14]

وبسبب ذلك انقسم المجتمع البيزنطي زمن هرقل إلى مجموعة مؤيدة لمذهب الطبيعة الواحدة وهم سكان بلاد الشام ومصر، ومجموعة رفضت ذلك وأيدت مذهب الطبيعتان وهؤلاء سكان القسطنطينية، وكان على الإمبراطور ضرورة التعامل مع هذه الانقسامات المذهبية، من الناحية السياسية والدينية وقد أُتيحت له فرصة الظهور بمظهر رجل الدين الحامي للمسيحية وأتباعها ، وذلك عقب نشوب الحرب مع الإمبراطورية الفارسية التي أسفرت عن تحطيم الضريح المقدس - كنيسة القيامة - ببيت المقدس وسلب أغلى رمز ديني مسيحي كان موجوداً فيها تمثل في الصليب المقدس الذي حمل إلى بلاد فارس. كما أُسر كثير من المسيحيين كان من بينهم بطريرك بيت المقدس ناهيك عن قتل وذبح العديد منهم داخل المدينة على يد اليهود وتدمير العديد من الأديرة وتخريب المزارع وإجلاء غالبية سكان القدس ومدن فلسطين تقريبا.[15]

ويرجع وقوع هذه الكارثة الكبيرة -التي حلت بالإمبراطورية ككيان سياسي من جهة وكحاضنة للديانة المسيحية من جهة اخرى- الى عدم مقاومة سكان هذه المناطق وعلى وجه الخصوص في سوريا وفلسطين للجيش الفارسي وعدوانه على بلادهم لمخالفتهم مذهب القسطنطينية ولذا قاموا بإفساح المجال أمام عباد النار ممتنعين عن مقاومتهم مفضلين هيمنتهم عليهم بدلا عن بيزنطة ونكاية في حكومتها وما كانت تقوم به من أعمال ضدهم بحجة الخلاف المذهبي بينهم والذي ذاقوا بذريعته صنوفا كثيرة من الظلم والتعذيب حيث كانت هذه الحكومة تدعم المذهب الارثوذكسي وهو مذهب كنيسة العاصمة ضد كل مخالف له.[16]

لم يقتصر تخاذل الأهالي على سكان بلاد الشام فقط بل تكرر كذلك عند استيلاء الجيش الفارسي على مصر التي كانت تدين بالمذهب المونوفيزي حيث فضل سكانها ايضا كسكان سوريا وفلسطين الاحتلال الفارسي على هيمنة البيزنطيين.[17]

هذا الأمر يمكن أن يعطي مؤشرا على تلك الممارسات التعسفية التي كانت تقوم بها الحكومات البيزنطية المتعاقبة ضد المخالفين لمذهب الكنيسة الرسمي ، ومما يدلل على ذلك تفضيل الأهالي في سوريا وفلسطين ومصر سيطرة وحكم الفرس وما يقع منهم من ظلم -مع الخلاف الكامل بينهم في الدين- على حكم البيزنطيين الذين يختلفون معهم فقط في بعض المسائل الفرعية

على أية حال شكل سقوط مصر على يد الفرس ضربة قوية لبيزنطة، فمن الناحية السياسية خسرت رقعة جغرافية كبيرة تطل على البحر المتوسط وتقع على الحدود الشرقية لبقية أملاكها في شمال

---

(13) Theophanes: Op. Cit, pp. 199- 200, Vasiliev: Op. Cit, Vol. I, p. 80, Ostrogorsky: Op. Cit, p.59.
(14) Codex. Just. 1.1.6.1.
(15) Vasiliev: Op. Cit., Vol. I, p195.
(16) Vasiliev: Op. Cit, Vol. I, p196.
(17) Teophanes: Op. Cit, pp432, Vasiliev: Op. Cit, Vol. I, p196.

إفريقيا ,أما من الناحية الإقتصادية فقد أدى فقدانها إلى حرمان بيزنطة من أكبر موارد القمح الذي كانت تعتمد عليه في توفير الرغيف المجاني لسكان العاصمة.[18]

حاول هرقل التغلب على تلك الظروف بالدبلوماسية فسير وفداً للمرة الثانية إلى كسرى يطلب منه الصلح وأن يدفع له جزية مقابل ذلك إلا أنَّ كسرى طرد أُولئك الرسل وأرسل معهم كلمات مفادها أنه لن يعفي عنه حتى يترك عبادة المصلوب الذي يدعوه الله ويعبد الشمس [19] ويروي أومان[20] نص رسالة ذكر أنها تنسب إلى كسرى جاء فيها" من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى هرقل عبده الفاجر عديم الإحساس، ألم أقض على الأغريق؟ إنك تقول إنك تثق في إلهك، فلماذا إذن لم يخلص من يدي قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية؟ وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضا؟ على أنني سأغفر لك جميع ذنوبك إذا قدمت إلي ومعك زوجتك وأطفالك وسأمنحك الأراضي والكروم وعروش الزيتون وسأنظر إليك نظرة رحيمة، لا تغش نفسك بأملك الخائب في ذلك المسيح الذي لم يستطع حتى أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه".

وأمام هذه الأحداث وشدة وطأتها و الرعب والغضب اللذان أثارهما ضياع الصليب المقدس وألفاظ الكفر التي ارسلها كسرى ظهر الشعور الوطني والحماس الديني لدى سكان القسطنطينية، ويتجلى ذلك الأمر من الموقف الذي أعقب قرار الإمبراطور بنقل العاصمة إلى قرطاج ليتسنى له سبل المقاومة لتلك الأخطار، غير ان سرجيوس بطريرك القسطنطينية وأهلها اعترضا على نقل العاصمة.[21]

وعليه قامت الكنيسة بمنح هرقل ما تملكه من كنوز الذهب والفضة ليتم صهرها وتحويلها الى عملة يستعين بها على حرب الفرس وجاء هذا الأمر لما اعتبرته الكنيسة والإمبراطور معا حرب مقدسة تهدف لاسترجاع بيت المقدس واسترداد الصليب المقدس فطغى على الحرب جو الحماس الديني الجديد في نوعه في العصور الوسطى اذ لم يكن ذلك مألوفا قبل هرقل.[22]

على أية حال ترك هرقل العاصمة وابنيه تحت وصاية سرجيوس بطريرك القسطنطينية[23] ولعل هذا الأمر يعكس إلى حد بعيد- ذلك الانسجام والتوافق الذي كان يربط بين الإمبراطور وسياسته من جهة ورجال الدين في كنيسة العاصمة وما يتبعها من أقاليم من جهة اخرى، فرجال الدين هؤلاء كانوا يرون في شخصه منقذ المسيحية من ذلك العدو الشرس الذي اعتدى عليها وعلى مقدساتها، وسيمر بنا خلال أحداث ومجريات هذه الحرب ما يؤكد دعم الكنيسة للإمبراطور.

انطلق هرقل على رأس الجيش بنفسه متجها إلى بلاد الفرس بعد معاهدة صلح عقدها مع ألافار مكنته من نقل جزء من جيشه إلى الشرق. وقد قام بمناورة بارعة منحته الأفضلية في اختيار ساحة الحرب في حين أجبرت الفرس على التخلي عن مراكزهم بجبال آسيا وذلك عندما اتجه صوب أرمينيا ولم يتجه إلى المدن المحتلة لتحريرها مما اضطر كسرى إلى ملاحقة الجيش البيزنطي حتى أرمينية حيث نشبت الحرب بينهما وانتهت بانتصار مؤزر لهرقل وجنده على الفرس.[24]

غير أنَّ نقض ألافار للصلح وتهديدهم بالهجوم على القسطنطينية فرض على هرقل العودة إلى العاصمة حيث زاد مقدار الجزية المقررة للافار وأرسل مجموعة من أقاربه كرهائن إلى بلاط الخاقان،

---

(18) Vasiliev: Op. Cit, Vol. I, p196.
(19) Teophanes: Op. Cit, pp433,434.
(20) مرجع سابق، ص 103.
(21) Ostrogorsky: Op. Cit, p.93.
(22) Vasiliev: Op. Cit, Vol. I, p196
(23) Teophanes: Op. Cit, pp433,434, Ostrogorsky: Op. Cit., p.100.
(24) Teophanes: Op. Cit, pp433,434, Ostrogorsky: Op. Cit, p.100.

وبذلك تمكن من إبرام معاهدة ثانية تمكنه من التفرغ لحرب الفرس ، التي -كما اشرنا سابقا - طغى عليها الحماس الديني وما يؤكد هذا القول أمران : الأول تلك الشروط المهينة التي وافق عليها هرقل بالاتفاقية سابقة الذكر, والثاني هو توجهه هذه المرة مباشرة نحو جنازاكا التي ولد فيها زرادشت نفسه ويقع فيها معبده الذي هو أكبر المراكز الدينية الرئيسية لديانته.[25] وبعد أن تم تحقيق النصر على الجيش الفارسي استولى البيزنطيين على المدينة وقاموا بتحطيم وحرق المعبد بالكامل انتقاما لما حصل في بيت المقدس بعد دخول الفرس إليها.[26]

وبالرغم من انتصار هرقل رفض كسرى التسليم والجنوح إلى السلام وأعدَّ خطة جديدة ارتكزت على أن يتم ارسال جيش يعترض تقدم هرقل وجيش ثاني يهاجم القسطنطينية بالاتفاق مع الافار الذين نقضوا الصلح مرة أخرى ليقوموا بالهجوم في الوقت نفسه على العاصمة البيزنطية. وهكذا وجد هرقل نفسه في وضع مربك وخطير إلا أن الكنيسة التي كانت على وفاق مع الإمبراطور في حربه ضد الفرس نجحت عبر بطريركها وقساوستها من إذكاء روح الحماس الديني لدى شعب القسطنطينية فتمكنوا من الصمود أمام الافار الذين اضطروا إلى الانسحاب بعد خسائر فادحة تكبدوها نتيجة لطول مدة الحصار ونقص الامدادات وتلك الشجاعة التي أبداها أهل القسطنطينة والأسطول البحري البيزنطي الذي تمكن من إغراق بعض سفن الافار.[27]

وما إن وصلت أخبار هزيمة الافار إلى مسامع الجيش الفارسي الذي كان في خلقيدونيا حتى بادر بالانسحاب، فعمل هرقل على قيادة هجوم كبير سنة 627م استهدف قلب الإمبراطورية الفارسية فوصل إلى نينوى حيث دارت رحى معركة حاسمة اسفرت عن انتصار كبير للبيزنطيين الذين واصلوا زحفهم سنة 628م فاستولوا بعد أن فر كسرى من أمامهم على مدينة داستاجرد التي كانت مقر لملكه ثم ما لبث أن عزل كسرى ومات في سجنه إثر مؤامرة قادها ابنه قباذ شيرويه ضده. الذي ما إن استقرت له الامور حتى أرسل إلى هرقل يطلب الصلح فاشترط عليه هرقل أن يخرج من كل الأراضي البيزنطية التي تحت يده وأن يخلي سبيل كل الأسرى وأن يدفع غرامة مالية وأن يرد جميع ما سلب من بيت المقدس بما فيها الصليب المقدس، فوافق على كل شروطه وبذا انتهت الحرب الفارسية البيزنطية وعاد هرقل إلى القسطنطينية منتصرا حاملا معه غنائمه وعلى رأسها الصليب الخشبي المقدس حيث تم استقباله باحتفال كبير من قبل سكان العاصمة وبعد أن تم عرض الصليب المقدس أمام مذبح سانت صوفيا رده هرقل الى بيت المقدس.[28]

لم يكن ذلك نهاية المطاف، ولم يكن انتصار هرقل استمرارا لسعادته واستقرارا لإمبراطوريته، فما إن عاد حتى بدأ صراع جديد مع عدو قوي طرق حدود امبراطوريته الشرقية قادما من شبه الجزيرة العربية، وذلك بعد أن انتهى الخليفة ابوبكر الصديق من حروبه الداخلية -التي اشتهرت بحروب الردة -وبدأ يتجه إلى نشر الإسلام وتوسيع رقعة الدولة الاسلامية على حساب الدولتين الفارسية والبيزنطية على حد سواء سنة 634م ليسجل هذا الحدث ظاهرة جديدة من الحرب الدينية في العصور الوسطى تأثرت بها الحياة السياسية وعلى وجهه الخصوص الإمبراطورية البيزنطية. وذلك لأن هرقل بعد عودته من حرب الفرس أدرك أن الأسباب الكامنة خلف ضياع تلك المقاطعات بهذا الشكل السريع

---

(25) Ibid. p.102.

انظر ايضا : أومان : مرجع سابق، ص106.

(26) Ostrogorsky: Op. Cit, p.102.

(27) Vasiliev: Op. Cit, Vol. I, p197.

(28) Ibid, Vol. I, p.198.

انظر ايضا: أومان: مرجع سابق، ص 108. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية 323-1081م، بيروت، دار النهضة العربية، 1982، ص 126-127.

وذلك الموقف السلبي الذي كان تجاه الفرس لم يكن سوى ضجر سكان الولايات ونقمتهم على العاصمة وسياستها العقيدية المخالفة لهم والمتعنتة في معاملتهم .

ومن خلال هذا المفهوم حاول القيام بعلاج تلك الحالة التي أرهقت الإمبراطورية وأوصلتها إلى هذا المستوى من الاضطراب وعدم الاستقرار ، فقام بمناقشة الموضوع مع **سرجيوس** بطريرك القسطنطينية الذي كان بدوره متحمسا لتوحيد الكنيسة، وقام بالاتصال بأساقفة بعض الكنائس، وأذاع الإمبراطور بيان ايمانه الذي حاول فيه التوفيق بين المذهبين الخلقيدوني والمنوفيزي، حيث ذكر في محاولته أن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية، تتسمان بإرادة واحدة، وعرف هذا المذهب بمذهب الإرادة الواحدة او المونوثلية Monotheletism[29].

غير أن محاولة هرقل لم تنجح إذ رُفض مذهب الإرادة الواحدة من قبل الخلقيدونية والمونوفيزية على حد سواء على الرغم من اعتراف البابا هونوريوس الاول Honorius I بصحة التعاليم القائلة بإرادة واحدة، وازداد الأمر سوءً بعد أن رفضت الكنائس الشرقية هذه الرؤية الجديدة للعقيدة المسيحية، وفشلت كل الجهود الدبلوماسية التي بذلها هرقل وأسقفه سرجيوس لحمل مسيحي الشرق على قبول مذهبه، مما دفعه إلى اتباع سياسة العنف تجاههم، غير أن هذه السياسة فشلت هى الأخرى فشلا ذريعا وكان عاقبة أمرها أن فسحت المجال أمام المسلمين الفاتحين الجدد للسيطرة على بلاد الشام ومصر وبهذا ضاعت من جديد الاقاليم الشرقية النابذة لسياسة القسطنطينية الدينية.[30]

والناظر إلى الوقائع التي جرت بين المسلمين والبيزنطيين سيرى أن ذلك الخلاف الديني وسياسة العنف التي صاحبته كانت وراء خسارة تلك الأقاليم.

فبعد خسارة المسلمين أمام الجبش البيزنطي في أول احتكاك عسكري في معركة مؤتة سنة 8هـ، تمكنوا من تحقيق انتصارات متتالية على بيزنطة التي توالت خسائرها، ولعل أكبر وأشهر هزائمها كانت في معركة اليرموك (سنة 13هـ/ 634م) حيث أرسل الخليفة ابوبكر الصديق الجيوش إلى بلاد الشام لفتحها وطرد البيزنطيين منها الذين ما إن وصلت أخبار تحركات الجيش الاسلامي وما حققه من انتصارات على جيوشهم حتى شرعوا في جمع جيش كبير التقى مع المسلمين في موقعة اليرموك[31] وبالرغم من التباين العددي بينهم وتفوق البيزنطيين في ذلك إلا أن كفة المعركة مالت لغير صالحهم وانهزموا شر هزيمة ضاعت على إثرها بلاد الشام [32] ويرجع بروكلمان[33] هزيمة الجيش البيزنطي إلى خيانة الجنود الأرمن الحاقدين على بيزنطة. ولعل هذا الحقد راجع إلى الخلاف المذهبي إذكان الأرمن من اتباع الطبيعة الواحدة.

---

[29] Vasiliev: Op. Cit, Vol. I, p.222.
[30] Ostrogorsky: Op. Cit, p.108-109.
انظر ايضا: رأفت عبد الحميد: الإمبراطورية البيزنطية العقيدة والسياسة، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص102.
[31] ابن كثير، ابوالفداء اسماعيل: البداية والنهاية، تحقيق رياض عبد الحميد ومحمد حسان عبيد، ط2، بيروت، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، 7/2010،86 ومايليها.
[32] ابن الاثير، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمدبن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق ابي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، 2/258-262.
[33] كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1968، ص 95.

## الخاتمة:

بعد تتبعنا لمجريات الأحداث زمن الإمبراطور هرقل يتضح مدى تطور الجدل الديني إبان تلك الفترة والذي كان له تأثير كبير وجلي على سير الحياة السياسية، التي انعكست على الإمبراطورية ككيان سياسي من حيث القوة والضعف والتأثير على محيطها الجغرافي.

وقدتبين هذا الأمر - من خلال ما ذكرنا آنفا – في الضغوط التي مارسها النظام الحاكم تجاه النسطورية وأصحاب الطبيعة الواحدة، حيث كانت ردة فعل أتباع هذه المذاهب وهم غالبية سكان بلاد الشام ومصر اتخاذهم للموقف السلبي تجاه أعداء الدولة المتمثلين ذلك الوقت في دولة الفرس وعدم مقاومتهم مما أدى إلى استيلاء الأكاسرة على تلك المنطقة بل وهددوا العاصمة البيزنطية نفسها.

ويتكرر المشهد نفسه إبان الفتح الاسلامي حيث رحب السكان بالجيوش الإسلامية وقامت مجموعة منهم بمد يد المساعدة لهم بمنحهم الادلاء في حين اعتزلت المجموعة الأخرى حربهم نكاية في كنيسة العاصمة والنظام الذي يحميها.

كما أن ظاهرة جديدة طفت في ذلك الوقت على السطح لأول مرة خلال العصور الوسطى ألا وهي **تأثير الحماس الديني على الحروب آنذاك** وبرزت هذه الظاهرة بوضوح من خلال حديثنا عن الإحتلال الفارسي لأراضي الإمبراطورية الشرقية واستيلائهم على الصليب المقدس من بيت المقدس وما لحق بهذه الأحداث من جواب ورد في رسالة كسرى الشفوية التي جاءت ردا على طلب الإمبراطور هرقل إليه عقد الصلح بينهما وما تضمنه هذا الرد من دعوة كسرى لهرقل بترك المسيحية والعودة الى عبادة الشمس التي كانت ديانة الإمبراطورية الرومانية القديمة، وما قام به رجال الدين الذين اقرضوا هرقل كنوز الكنيسة لتحويلها الى عملة نقدية مساهمة منهم في الحرب ضد عدوهم الفارسي وردة فعل تجاه رسالة كسرى.

وتتجسد التأثيرات الدينية على الأحداث السياسية زمن هرقل في ظهور مذهب **الإرادة الواحدة** الذي جاء نتيجة لاجتهاده في وضع حلول للخلاف المذهبي داخل الإمبراطورية وحرصه على نبذ الفرقة لتوحيد الجبهة الداخلية في مجابهته للعدو الخارجي، حيث كان يرى أن السبب الكامن خلف ما تعرضت له الإمبراطورية هو ذلك الخلاف المذهبي. إلا أن هذا الأمر لم يكن ناجحا بل زاد الوضع سوء خاصة عندما حاول فرض مذهبه بالقوة مما ادى الى سهولة دخول واستيلاء المسلمين على شرق الإمبراطورية.

**- المصادر والمراجع العربية:**

- ابن الاثير، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق ابي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.

- ابن كثير، ابوالفداء اسماعيل: البداية والنهاية، تحقيق رياض عبد الحميد ومحمد حسان عبيد، ط2، بيروت، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.

- اومان:الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، مصر ،دار الفكر العربي، 1953.

- اسحق عبيد: فيما جرى في بيعة الإسكندرية بعد المجمع الخلقدوني المقدس 451م من واقع مخطوطة بالعربية كتبها الراهب فرانسيسكوس مريا من رهبنة الأصغار للقديس فرنسيس الشاروفيني القاصد الرسولي إلى أرض مصر 1691م، حوليات كلية الآداب، عين شمس، مجلد 13، القاهرة، 1973.

- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1968.

- بيشوى: كتاب وثائقي عن كنيسة المشرق الأشورية النسطورية تاريخها وحاضرها وعقائده، مطرانية دمياط وكفر الشيخ والبراري ودير القديسة دميانة، 2003.

- رأفت عبد الحميد:الإمبراطورية البيزنطية العقيدة والسياسة، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.

- سمير عبده: المسيحيون السوريون قديما وحديثا، ط2، دمشق، 2002.

- . السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية 323-1081م، بيروت، دار النهضة العربية، 1982

- عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1995

- محمد حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ،ط5، القاهرة، دار النهضة العربية، 1995.

- هسي: العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1977.

**المصادر والمراجع الاجنبية:**

- Codex. Justinian, Trans. Fred H. Blume, Ed, Timothey Kearley.

- John H. Rosser, Historical Dictionary of Byzantium.

- Marcellinus Comes. The Chronicale of Marcellinus, Trans, Brian Croke, Sydney, 1995.

- Ostrogorsk, G. History of the Byzantine State, Translate. Joan Husse, Rutgers University Press, New Jersey, 1957.

- Theodosios. The Theodosian Code and Novels and the Srmondian Constitutions, trans, Clyde Pharr, Princeton University,1952.

-Theophanes. The Chronicle, trans.Cyril Mango and Roger Scott, Clarendon Press. Oxford, 1997.

- Vasiliev. History of the Byzantine Empire 324-1453,Madison, ed.2, 1952.

- Vine, A. R. The Nestorian Churches,London,1937.